الباب الثالث

التأويل الفلسفى للدين

يتناول هذا الباب تأويل « رويس » الفلسفى للدين حيث يمثل الشق الثانى من فلسفة « رويس » الدينية ، ففى الشق الأول إتجه « رويس » للتأويل الدينى للفلسفة ، وبين كيف أنها عبارة عن « دين طبيعى » أو لها روح دينية . وأما فى الشق الثانى من فلسفته الدينية فإنه إتجه لتأويل المسيحية وأفكارها الرئيسية ، إعتبر فكرة « المجتمع العالمى » تمثل الفكرة المحورية فى العقيدة المسيحية . ولئن تمثلت هذه الفكرة فى « الكنيسة » ، بإعتبارها المجتمع المؤمن الذى بشر به « المسيح » فى حديثه عن « مملكة السماء » ، إلا أن فكرة « الكنيسة » ذاتها ، قد جاءت غامضة بالرغم من محوريتها فى العقيدة المسيحية ، إعتبر « رويس » أن العقيدة المسيحية تقوم على أفكار ثلاثة ، فكرة « المجتمع العالمى » « والخطيئة الأولى » « والتكفير » وإتجه إلى تفسير فكرة المجتمع المحبوب أو العالمى ، تفسيراً فلسفياً ، يزيل الغموض عن الفكرة ، ويعيد بنائها فى ضوء المفاهيم الحديثة ويحاول تخليصها من غموضها . لذلك السؤال الذى يفرض نفسه الآن إلى حد قد نجح « رويس » فى تفسير فكرة المجتمع العالمى ؟ وهل جاءت التفسير متسقاً مع العقيدة المسيحية بصورة عامة ، أم إنه سعى لإفراغ المسيحية من مضمونها وتحويلها إلى نسق فلسفى ؟ كذلك إلى أى حد جاء تفسيره متسقاً مع مذهبه الميتافيزيقى وفلسفته بصورة عامة ؟ وإذا كانت محاولة لتعقيل المسيحية فهل جاء التفسير لصالح الفلسفة أم للدين ؟ وأيها الأصل والفرع ؟ أم أن المسألة كلها لا تخرج عن مجرد محاولة للتوفيق بين الفلسفة والدين ، وأن لا تعارض بينها ؟ وأخيراً محاولة الإجابة على التساؤل المحورى ما الهدف البعيد لفلسفه « رويس » الدينية أو من التأويل ؟ وما علاقة هذه الفلسفة بفلسفته للولاء بإعتبارها فسلفة أخلاقية ؟ هل المقصود تحويل المسيحية إلى مذهب أخلاقى ؟

الفصل الأول

المجتمع العالمى

أولاً : المثل الأعلى للمجتمع

أ – الأهـمية الدينـية

يعتبر « رويس » أن شرح فكرة المجتمع العالمى ، وتعريف المثل الأعلى لهذا المجتمع ، مسألة ضرورية لفهم العقيدة المسيحية أو معالجة مشكلاتها . فالكنيسة عبارة عن مثل أعلى للمجتمع العالمى . وتتمثل إشكالية فكرة « الكنيسة » ، فى أن صفات « مملكة السماء » ، كما ظهرت فى « موعظة الجبل » وفى « الأمثال » ، قد جاءت كوعد بخلاص الفرد ، وتحمل معنى إجتماعيا فى نفس الوقت ، وقد ترك السيد هذا المعنى غامضاً . فكان يخاطب الفرد بأن « مملكة السماء » فى باطنه ، وتارة أخرى يقال أن « مملكة السماء » تأتى فى النهاية ، حيث تتحق إرادة الله فى الأرض والسماء ، وتتلاشى الممالك الأرضية ، ويتحد المؤمنون مع « الأب » ، ومع بعضهم البعض فى العالم السماوى ، الذى أعده « الأب » لهم . لم توضح تعاليم السيد هذا الأتحاد النهائى لكل المحبوبين ، ولم تقـدم وصـفاً كاملاً لنـظام ومراتب « مملـكة السماء » ، ولجأ التلاميذ إلى الأسلوب المجازى الدينى ، لفهم ما يتعلق بنهاية العالم ، وكيف ستوحد هذه النهاية ، كل الذين تم خلاصهم فى مجتمع سماوى (١) . وعندما بدأت الكنائس المسيحية فى الظهور ، بدأ المجتمع المسيحي يربط بين مهمة « الكنيسة » ، ومذهب وأقوال السيد عن « مملكه السماء » ، وما كان غامضا فى الأمثال أصبح واضحا ، فمملكة السماء ستحقق من خلال الكنيسة وفى المؤمنين المؤسسين لها على الأرض ، ومن خلال الروح التى كان يعتقد إرشادها لكنيسة . والحقيقة أن المجتمع المسيحى الأول ، لم يقتصر دورة على الربط بين مملكة السماء والكنيسه ، وإنما أضاف تعاليم جديدة للمذهب الأصلى لمملكة السماء ، بل وأصبحت هذه الإضافات أكثر تمييزاً للدين الجديد ، عن الأقوال التى نسبت « للمؤسس » . ولذا يعد من العبث محاولة تجاهل قيـمة دور الكنيسة ومعناها

---

(١) J.royce : The Problem of Christianty , p.I. p. 50.

وقيمتها وعملها فى المجتمع المسيحى الأول الذى نشأ بعد رحيل « المؤسس ». ويؤكد « رويس » أن أى دراسة جادة لأفكار المسيحية الحيوية ولمشكلاتها ، لا بد أن تبدأ بدراسة فكرة « الكنيسة » ، وما تعنى الفكرة ، وما درجة مصداقيتها (١) .

والواقع وبالرغم من أهمية فكرة «الكنيسة » في العقيدة ، الإ أنه لا يوجد معنى واضح وتفسير نهائى وشامل للفكرة ، بل وأصبح معناها أكثر غموضاً وأدفع للحيرة من كثرة التفسيرات المتناقضة . من جهة أخرى ولئن كانت الفكرة ، تحقق للمؤمن السلوى والسكينة الروحية ، الإ أنها تعد فكرة عابسة صارمة اذ تلزم المؤمن بالوقوف بحزم ، أمام كل ما يعترض تحقيق الوحدة الروحية ، لأن الكنيسة الحقه ، لم توجد بعد ، وتمثل أمانه فى عنق الإنسان وتخاطبه قائلة « أوجدنى » . كذلك يلاحظ وجود تناقض خطير بين المعنى الباطن والظاهر ، أو بين الروح والحرف أو بين روح ونص ، المذهب الخاص بطبيعة عمل الكنيسة المسيحية . فتؤكد روح المذهب وجود مجتمع روحى ، ينتمى إليه كل من كان له هدف حقيقى فى الحياة ، أو بعبارة دينية كل من يكتب له الخلاص.فروح المذهب عقلية وإنسانية وعالمية . وأما النص الحرفى للمذهب فلقد حدث له مثلما يحدث لكل الأفكار الإنسانية العظيمة ، عندما تتجسد حياً . إذ تعرضت فكرة الكنيسه لتعقيدات مذهبية ، ولصراعات طائفية ، وصلت إلى حد الحروب ، والحقيقه أن إتهام الكنيسة الفعلية الزمنية ، بمسئولية الفشل فى تحقيق الكنيسه المثالية ، لا يعد حلا للأشكالية ، وإنما لابد من النظر إلى الطبيعة الإنسانية ذاتها ، وطبيعة عمليات النمو ، لأنها تعد مصدر مآسى تاريخ كل الأفكار المسيحية (٢) . إن فكرة الكنيسة قد ظلت فكرة غامضة ، ولئن كشف « سفر الرؤيا » ، عن أن الكنيسة الحقة ، هى القدس الجديدة التى سوف تأتى وتنزل من السماء ، الإ أن الكنيسة الأولى تركت مهمة فهمها وتفسيرها ، للأجيال اللاحقة ، ويرى « رويس » أن الفهم الصحيح ، لأى مثل أعلى ، لابد وأن يتم بدراسة عقلية له ، وبدراسة تاريخية لتطوره . وفى حالة فكرة الكنيسة ، يمكن البداية بالبحث عن معناها ، وعن البواعث التى أدت إلى نشأة الفكرة ، كمثل أعلى ، من الناحية العقلية المنطقية البحتة ، بعيداً عن أى عقائد مسيحية ، ثم يتم

---

(١) Ibid ., p. 52.

(٢) Ibid ., p. 56.

تحديد الطريقة التى تم بها التعبير الأولى لفكرة الكنيسة المسيحية فى التاريخ (١).

ويبين « رويس » أن فكرة الكنيسة ظهرت فى البداية كتعبير عن الحب المسيحى ، بإعتباره طريقاً للخلاص ، أو لإيجاد المجتمع المحبوب ، فلقد كان التعبير الأول لفكرة الكنيسة ، عبارة عن ترجمة لتعاليم السيد حول قدرة الحب المسيحى على تحقيق الخلاص والتى ذكرت فى « الأمثال » ، وتركها السيد للأجيال اللاحقة لفهمها وتفسيرها ، وأفضل تتبع لظهور وتطور الفكرة ، يمكن أن يتم من خلال المقارنة بين المجتمعات المسيحية الأولى وبعض المجتمعات اللامسيحية ، وبالتالى يكون هناك نموذجان لمثال المجتمع المحبوب ، ولبعض الأفكار المشتركة والمتشابهة بين المجتمعات المسيحية وتلك التى لا تدين بها . كما تمكن هذه المقارنة من معرفة الدوافع التى جعلت مثال المجتمع العالمى مثلاً أعلى ، بعيداً عن العقيدة والتاريخ المسيحى . ولئن كانت هناك دعوة تفصل بين التاريخ الطبيعى للإنسان والأخلاق ، إلا أن الحقيقة أن هناك صلة بين الدوافع التى تؤثر فى التاريخ الطبيعى والدوافع الأخلاقية ، لأن طبيعه الإنسان ككائن إجتماعى ، تقرر مثلاً أخلاقية معينة ، ثم تتحول هذه المثل بدورها ، وتعدل تاريخ المجتمع ذاته (٢) .

ب – الأساس النفسى والتجريبى

ويرى « رويس » أن أى دراسة جادة للمجتمع ، تبين أن المجتمع كائن حى ، ولقد لاحظ كل من أفلاطون وأرسطو ، أن هناك نوعاً من الحياة العضوية الخاصة بالمجتمع ، حتي أنه يمكـن المقارنة بين روح الدولة وروح أى كائن حى . فالمجتمع ليس مجرد مجموعة من الأفراد ، وإنما كيان حى ذو أعضاء . وله نفس صفات الفرد الإنسانى ، وينمو ويمرض ويتحلل مثل أى كائن حى ، وللمجتمع عقل خاص به ، يعرض نفسه فى اللغة والعادات والتقاليد والديانات . وبالرغم من أن هذه الأمور كلها أمور عقلية ، تربط بالكائن الحى ، وبالأفراد ، إلا أنها أمور وموضوعات ، لا يمكن لفرد أو لجماعة غير منتظمة إجتماعيا من إنتاجها . كذلك للمجتمعات القدرة على أن تنتظم فى ظل ظروف معينة لتكوين مجتمع أكثر

---

(١) Ibid ., p: 58.

(٢) Ibid ., p. 62.

تقدما ، فتتوحد الدول فى إمبراطوريات ، وتنتج اللغات الأدب العالمى ، وتتجه الدول لتكوين المجتمع العالمى ، وإن كان لم يتحقق بعد (١) . ولئن ظهرت إعتراضات كثيرة على النظر للمجتمع بإعتباره كائنا حياً ، إلا أن الملاحظة العملية للواقع ، تبين أن المجتمعات كائنات نفسية ، ويرى « فوندت » فى كتابه « علم النفس الشعوب » أن الحياة النفسية للمجتمع يمكن أن يخضع للتحليل النفسى ، لأن للمجتمع قوانينه النفسية ، يمتلك عقلا وشعوراً . والواقع وبصرف النظر عن هذه الأعتراضات ، فإن تصور المجتمع كائن حى ، يعد تصوراً مفيداً للمذاهب الأخلاقية والدينية . كما يلاحظ من الناحية العملية أن الفرد ، لا ينظر لمجتمعة بإعتباره كائنا واحداً فقط ، وإنما من الملاحظ أنه يحب مجتمعه ويخلص له ، مثلما يخلص لأحد أفراد بنى جنسه ، وقد تصل الأمور إلى حد التضحية بحياته من أجل مجتمعه . وغالبا لا يظهر مثل هذا الولاء من الفرد للمجتمع من منطلق إقتناعه بأقوال الفلاسفة مثلا ، وإنما يظهر بدافع باطنى ورغبة قلبية ، بأن يسلك هذا السلوك . ويلاحظ أيضا أن كل أنماط سلوكه ، تدل على معاملته للمجتمع ، كما لو كان كائنا «فوق إنسانى» ، أو « شخصاً » فى مستوى أعلى من مستواه . فمن يحب مجتمعه ، ويخلص له ، يقدس وجوده ويضحى بمصالحه الخاصة من أجله . وفى هذه الحاله قد يكون فى إخلاصة للمجتمع ، قدرة وواجبه الأخلاقى . والحقيقه أن مثل هذه النظرة ، لا تتطلب من الفرد أن يكون متصوفاً ، بل يكفى أن يكون مواطناً صالحاً (٢) . ويبين التاريخ أن هناك العديد من الأفراد ، الذين نظروا لمجتمعاتهم تلك النظرة ، وليس هناك مصطلحاً أدق من مصطلح « الولاء » للتعبير عن هذه النظرة ، لأن الولاء هو الإخلاص الذى تعامل به نفس ما ، قضية معنية وتحقق بها وحدة الأفراد ومصلحة إجتماعيه ، فحب المجتمع يعنى الولاء له والباعث على الولاء يكمن فى طبيعة الإنسان (٣) .

والحقيقة أن «الولاء » لا يقتصر على زمن معين أو شعب ما ، ولئن كان الوعي بالولاء قد ظهر مرتبطا بالحروب ، وتم معرفة الكثير من الفضائل فى ضوء الولاء ، إلا أن الولاء يكون له وجوده فى أوقات السلم أيضا . كذلك غالبا ما يدخل الولاء فى تحالف وثيق مع الدين ، بسبب طبيعته ، اذ تتطلب روح الولاء ، تركيز الإنتباه من قبل الفرد على حياة أوسع وأشمل

---

(١) Ibid ., p. 63.

(٢) Ibid ., p. 68.

(٣) Josiah Royce : The Philosophy of Loyalty, (1908), New York, 1967, fecture, I

من حياته ، ودائما ما يشعر بإستقرار إرادته من خلال التقاليد الإجتماعيه التى يقبلها راضياً . فاذا ما توحد الولاء بالدين تصبح الآلهة قادة لمجتمع الفرد ، وينمو جلال وإنسجام الحياة المخلصة ، فالبواعث على الولاء بواعث جمالية ، إلى جانب كونها أخلاقية ، ولذلك يصبح المجتمع بالنسبة للفرد سامياً وجميلاً (١). ولما كانت حياة الفرد ، تتصف دائما بالتشتت والحيرة بسبب طبيعته ، ويمثل هذا التشتت مصدراً مستمراً للإرتباك والفشل ، بينما المجتمع الذى يحبه ويخلص له ، يقدم الإستقرار النسبى ولإرادته ، وحياته بعاداته المنتظمة وتقاليده الثابته ، فإن الولاء للمجتمع يحقق الإستقرار لإرادة الفرد ، ويظهر كحل لمشكله حياته الشخصية . كذلك يلاحظ فى أوقات الحروب أن الفرد يتعلم إحترام ولاء الخصم لقضيته ، وإحترام الولاء لقضية « الشهامة » ، ووحدة روح الولاء . لذلك يلاحظ أن المخلصين يكونون ذا طبيعة فكرية واحدة ، وبالرغم من تعدد القضايا والقوميات ، توحد روح الأخلاص واحبة والولاء ، كل الذين يخضعون لها . فيكون التطور المنطقى « لروح الولاء » ظهور وعى « بمثل أعلى » لمجتمع عالمى لكل المخلصين ، يكون بالرغم من كل أنواع الصراعات والحروب ، وأنواع القوانين ، ذا قيمة عليا وإن كان لم يتحقق بعد فى حياة المدنية .

ويرى « رويس » أنه يمكن تتبع تكوين مثل هذا المثل الأعلى « للمجتمع العالمى » فى صور الولاء العملية والحسية ، وفى تاريخ العلاقة بين الولاء والدين فى الحضارات المختلفة . ففى البداية يكون الولاء عبارة عن إيمان عملى ، بأن للمجتمعات قيمة أرقى من أى قيمة أو مصلحة فردية لأى فرد من أفراده . ومع التطور بدأ يظهر نوع من الولاء أكثر رقياً ، ويتمثل فى حب ولاء الخصم والغريب ، أى حب لنوع من الولاء يختلف تماما عن الولاء العملى ، ويميل هذا النوع من الولاء ، سواء كان مرتبطا بالدين أو مستقلاً عنه ، إلى توجيه الفرد نحو الإيمان بأن كل المخلصين أخوة ، وتجاه تقدير كل قيم الحياة فى ضوء هذا الأعتقاد ، وفى ضوء علاقتهم بخدمة مجتمع فكرى واحد . وينتمى كل الأفراد فكرياً إلى هذا المجتمع ، ويسلك كل منهم كما لو كان عضواً فى هكذا المجتمع العالمى ، ويشعر فى نفس

---

(١) Ibid ., p. 10 - 25.

الوقت بأن مثل هذا السلوك ، يحقق غاية حياته الخاصة ، ويكسب ما يعد بالمعنى الدينى خلاصاً [١] .. ولئن كان الرواقيون قد تصورا وجود مثل هذا المجتمع الفكرى لكل أفراد النوع الإنسانى فالواقع أن مفهوم الولاء الكلى ، بالإخلاص لوحده مجتمع فكرى يكون كل المخلصين أعضاءاً فيه ، لم ينـــبع من أى تصـور فلسفى ، وإنما من إهتمامات ومصالح عملية ، ويتجه بذاته كمفهوم ، إلى توسيع المجتمع الفكرى للمخلصين ، تجاه توحيد هذا المجتمع مع كل أفراد البشرية [٢] . فلقد ظهر المثل الأعلى للمجتمع العالمى من طبيعه الإنسان الإجتماعية ، ولم يظهر بفضل آراء فلسفية أو دينية .

جـ – الصورة المسيحية للمجتمع

وأما بالنسبة لظهور المثل الأعلى للمجتمع العالمى فى المسيحية ، يرى « رويس » أن تعاليم « بولس » فى المحبة والولاء لمجتمع المومنين ، كانت مصحوبة بالتأكيد بأن مجتمع المؤمنين مجتمع عالمى حقـيقى ، وبات مجتمع المؤمنين مجسداً لمـا تنـبأ به الأنبـــياء عن « إسرائيل المنجية » ، وكيف أن خلاص الإنسان يتحقق بفضل الله ، بأن ينتمى كل إنسان لهذا المجتمع ، ولأن نهاية العالم تأتى قريبا ويظهر أعضاؤها ، ورأسها الآلهى – فطبقاً لتوقعات « بولس » . لن يكون هناك سعى طويل تجاه مثل أعلى . فلقد تعامل « بولس » مع كل مصالح وإهتمامات البشرية ، ووجد الولاء كمثل أعلى يضم كل مجتمع المخلصين ، وبإعتباره وسيلة لتحقيق غاية السيد كما عرفها فى تجربته الدينية ، وعندما دعى ليكون قديساً فيما بعد ، بدأ المثل الأعلى لمجتمع المؤمنين يتضح لديه أكثر فأكثر ، حتى باتت الكنيسة عنده هى حضور السيد (أى بيت المسيح) . إن المثل الأعلى للمجتمع العالمى ، والذى كان مطلبا ضروريا للطبيعة البشرية وحاجاتها ، ومرغوبا من كل إنسان ، وتنبأ به بنى إسرائيل ، جعلته التجربة الدينية التى عاشها بولس ، ماثلا أمامه بإعتباره عملا يوميا للروح فى الكنيسة . ألا يكون المسيح حاضراً أينما إجتمع المؤمنون ؟ ألا تحيا الروح فيهم ؟ ألم يصبح يوم السيد قريباً ؟ ألا ينتقلون جميعاً عندما يحين النصر النهائى [١] . وهكذا

---

(١) Josiah Royce : The Problem of Christianity, p.I p. 73

(٢) Ibid ., p. 74.

باتت فكرة المجتمع العالمى عبـارة عن حياة روحية يكتمل فيها الحب الكلى لكل أفراد البشرية ، وينسجم هذا الحب عمليا مع الولاء التام لمجتمع واقعى عالمى ، فلقـد كان « الله » و « الجـار » و « الكنيسة الواحدة » موضوعات ثلاثة للحب المسيحى . إلا أن المشكلة أن توقعات بولس بمجىء يوم الحساب لم تتحقق ، وأفسحت الكنائس البولسية المجال للكنائس التاريخية ، وأصبح تصورها للروح ليس مسألة حياة ، وإنما مسألة عقيدة ، فسيطر الحرف على الروح ، وتأخر مجىء السيد ، ومازالت القدس الجديدة مخفية فى المساء . وهكذا يرى « رويس » أن فكرة المجتمع العالمى ، أو المحبوب التى تجسدها الكنيسة البولسية المسيحية باتت المشكلـة الرئيسية فى المسيحية (٢) .

وبعد هذا العرض لإشكالية مثال المجتمع العالمى ، وإعتبار الكنيسة تجسيد لهذا المثال ، من الواضـح أن « رويـس » يعـطى قيمه للمجتـمع « المسيحـى » الأول ويتجـاهل دور « المؤسيس » أو البحث عن الأصل التاريخى له . وربما إتخذ هذا الموقف ، إما لغموض حياة ودور المؤسس ، أو لصعوبة الفصل بين أقوال المؤسس وإضافات المجتمع المسيحى الأول والتى أصبحت تشكل جزءاً ثابتاً فى العقيدة ، وإما إتخذ هذا الموقف بهدف إثبات النشأة الإجتماعيه للمسيحية بمعنى أن المجتمع المسيحى الأول يعد المسئول عن صياغة أفكارها ، وبالتالى تصبح القيمة الحقيقة فى مشكلةالعلاقة بين الفرد والمجتمع ، تخص المجتمع ، أو يكسب المجتمع صفة التالية ، ولكن ما الدليل على وجود هذا المجتمع المسيحى الأول ؟ « فرويس » يرفض البحث عن المستندات التاريخية ، فلا يبحث عن الأصل التاريخى مثـلاً ، وربما تكون حجته فى ذلك أنه يناقش أفكار المسيحية ولا يناقش تارخيها وبالتالى لا يمكن إتهامه بإهمال الدليل التاريخى (٣) . إلا أنه من الملاحظ أنه عند صياغة المشكلة الرئيسيه فى المسيحية ، كما تصورها أى وجود المجتمع المحبوب أو العالمى ، إعتمد على الحقيقة التاريخية للمجتمع المسيحى الأول وعلى وجود القديس « بولس » ، وبأن الكنيسة البولسية هى الكنيسة المسيحية الحقة . كذلك من الواضح أن « رويس » يعتبر الإنسان كائن إجتماعى بالطبع ، وتفرض وتقترح طبيعته الإجتماعية المثل العـليا الأخـلاقية ، ثم

---

(١) Ibid ., p. 103.

(٢) Ibid ., p. 104.

(٣) B.W. Bacon : Royces Interpetation of Christianity, The Philosophical Review Yale Theological Seminary . Vol. xxv p. 328 .

تعدل تلك المثـل بدورها التاريخ الطبيعى للمجتمع ، فهناك صلة حتمية بين الأخلاق والمجتمع [١] . وتقوم الفكرة هنا على أن المجتمع يخلق مثله بنفسه ، ولكن ما الدليل على صحة هذا الإعتقاد ؟ ولماذا لا يستمدها من من وحى خارجى ؟ ، وإذا كان المجتمع يستمدها من طبيعته فيضعها ويلتزم بها فيرتقى ويتطور ، فما ضرورة وجود الأديان ؟ وإذا كانت المثل نابعة من طبيعة الفرد فلماذا لا يتسجيب لها فى بعض الأحيان ؟ .

ثانيا : النظرية الميتافيزيقية للمجتمع

أ – أهميتها وإشكالية تعريف المجتمع

إذا كان المجتمع موجوداً فى التاريخ الإنسانى فى صور ومراتب متعددة ، وكانت الكنيسة المسيحية إحدى هذه الصور ، وطبقا لمذهب « بولس ، تعد المجتمع المثالى الذى تعبر فيه الروح الآلهية عن نفسها ، فإن المجتمع المثالى أصبح يمثل مشكلة لا يمكن حلها أو معالجتها ، بدون معرفة ما إذا كان الكون كله يشكل مجتمعاً أم لا ، بمعنى أيكون الكون كله مجتمعاً وكائنا إلهياً فى نفس الوقت أم لا ؟ وإذا كان المجتمع المثالى تجسيداً للروح الالهى فهل تنتشر الروح فيه كله أم فى أجزاء منه . وتسمى مثل هذه المشكلة بمشكلة الوحدة والكثرة فى الفلسفة [٢]. ولئن كان للدين أن يحيا بأفكاره وعقائده بعيداً عن الميتافيزيقا ، إلا أن أى مؤمن يحق له أن يعرف ، ما إذا كانت الأمور التى يتناولها الدين وقائع حقيقية تعلوا وتتسامى عن تجسداتها الإنسانية . لذلك يرى « رويس » أنه لا بد من دراسة لفكرة المجتمع العالمى فى ضوء نظرية عن العالم الواقعى ، فالمومن له الحق فى معرفة ، المعنى التى تكون به « الروح » و « المجتمع » والخلاص » وقائع حقيقية ثابته ، كذلك إذا وضح أن للمجتمع المحبوب وجوداً فى التاريخ وفى النسق الزمنى ، وليس مجرد نتاج لإهتمامات الإنسان ومصالحة الزائلة فإن المذهب الميتافيزيقى للمجتمع ، يتحول ويصبح نظرية عن وجود وطبيعة الله وتجلياته [٣] . كما تعد دراسة فكرة المجتمع العالمى ، مسألة هامة بالنسبة لموضوعات

---

(١) Ibid ., p. 103.

(٢) Ibid ., p. 104.

(٣) B.W. Bacon : Royces Interretation of Christianity, The Philosophical Review Yale Theological Seminary . Vol. xxv p. 328 .

اللاهوت التقليدى ، واذا ما أراد الإنسان فهماً لمسألة وجود الله وعلاقته بالعالم وبمصير الإنسان ، لابد من دراسة الأساس الميتافيزيقى لهذا المجتمع ، وإتباع التأويل منهجاً لهذه الدراسة . فمثل هذه الدراسة ، توضح العلاقة بين المجتمع والكائن الإلهى . وإذا كان ما يميز المذهب المسيحى فى الحياة ، يتلخص فى الإيمان « بالروح القدس » « والكنيسة الكاثوليكية » ومجمع القديسين » ، فإن فهم هذه المعتقدات ، يتطلب نظرية ميتافيزيقية عن المجتمع وعلاقته بالكائن الإلهى ، أو ما يسمى فى الفكر الدينى المسيحى « بالروح القدس » [١] .

كما تعتبر مسألة وضع نظرية ميتافيزيقية للمجتمع ، مسألة هامة بالنسبة للعقل الحديث وعلاقته بالعقيدة المسيحية . فدائماً ما تفصل فلسفة الدين فى معالجتها لمسألة وجود الله ، بين تصور « الله » والمذهب المسيحى المسمى « بالثالوث » أو « التثليث » ، وكانت لأسباب تاريخية ، تدرس مذهب « اللوجوس » بإعتبارة نظرية فى الشخص الثانى من « الثالوث » . أما يعتقد « الروح القدس » ، فلقد أهمله كل من مفكرى الكنيسة وفلاسفة الدين ، ولئن ظل الإيمان المسيحى صامداً لقرون عديدة ، بالرغم من عدم وجود نظرية تتعلق « بالمجتمع المثالى » ، وبالروح الإلهية » المكونه لوحدة وحياة هذا المجتمع ، إلا أن الإيمان الذى لا يعرف الكثير عن « الروح القدس » ، وكيفية وجوده ، لا يعد إيماناً مسيحياً حقيقيا . فمذهب « اللوجوس » إذا لم ينظر له متحداً مع الروح ، يعتبر مقولة يونانية فلسفية ، ولما كان « الأنجيل الرابع » قد وحد بين « اللوجوس » « وروح المجتمع » فإن مذهب الروح القدس يعد الفكرة المركزية لأى ميتافيزيقاً مسيحية متميزه [٢] .

كما تظهر أهمية وضع نظرية ميتافيزيقية للمجتمع ، بسبب كثرة « تعريفات » المجتمع وإشكالية تعريفة . ويرى « رويس » أن إشكالية تعريف المجتمع ، تكمن « أولاً » فى التأكيد على التعددية ومبدأ الفردية الذى يحفظ لكل فرد كيانه ، والتأكيد فى نفس الوقت على الوحدة العقلية للمجتمع ووصفه بأنه كيان له حياة مستقلة عن أفراده [٣] . كما تظهر « ثانياً » فى

---

(١) J.Royce : The problem of Christianity , vol II the Preface

(٢) Ibid ., p. 10.

(٣) Ibid ., p. 13.

مسألة التساؤل عن كيف يسلك المجتمع كوحدة واحدة ، بالرغم من تعدد الأفراد وعدم تماسكهم [١] . ولقد أدت هذه الإشكالية إلى وجود ثلاثة تعريفات للمجتمع ، يؤيد الأول منها التعدد والتفرد ، ويقول الثانى بالوحدة العقلية مع تعدد الأفراد ، وينادى الثالث بالوحدة العقلية الروحية للمجتمع . ويظهر التعريف الأول فى موقف الفهم العام من المجتمع ، إذ يعتبر أن المجتمع يحوى مجموعة من الأفراد المعزولين والمستقلين ، فيؤكد مبدأ الفردية ، ويرى إستحالة إعتبار الأفراد مجرد حوادث لمراحل مختلفة . ويدلل أصحاب هذه النظرة على أن ملاحظة الواقع ، تبين إنفصال تجارب ومشاعر الأفراد ، وإستحالة معرفة مايدور فى سريره الفرد من أفكار وآراء [٢] . كما يستند دعاتها على المسائل الأخلاقية ، فلكل قدراته ، ورغباته ومثله العليا ، ولا يمكن لآخر أن يحل مكانه [٣] . والحقيقة أن موقف الفهم العام لا يفسر التكوين الحقيقى للمجتمع ، إذ يرى « رويس » أن هناك العديد من الوقائع تثبت الوُحدة ، ووجود التعاون الإجتماعى أدى إلى وجود اللغة والتقاليد والأديان . ولقد بين « فوندت » أن اللغة والتقاليد ظواهر مستقلة عن عقول الأفراد . كما أن القول بالتعدد والإستقلال ، لا يفسر التجمعات التى يفقد فيها الفرد إستقلاله ، ويتحرك جميع الأفراد كأنهار تصب فى محيط ، وينوبون فى وحدة كلية [٤] .

أما أنصار التعدد والوحدة ، وتعريفهم للمجتمع ، فإن « وليم جيمس » خير من يمثلهم . فقال بالتعدد وفى نفس الوقت بوجود مركب من المشاعر ، وإنضم إلى « برجسون » فى القول بأن النفوس ، قد يحدث بينها نوع من « التداخل » فلقد ظل المجتمع بالنسبة « وليم جيمس » يتكون من مجموعة من الأفراد ، ولكن لا يعنى ذلك وجود فجوات لا يمكن عبورها ، فقد تشكل هذه النفوس « ذاتاً أوسع » ، ويمكن أن يحدث بينها تداخل ، عن طريق نوع من « الحدس الأعلى » ، ولكن بالرغم من ذلك ، جاءت فكرة « وليم جيمس » عن « الوعى المركب » مختلفة تماماً عن فكرة « وحدة المجتمع » ، لأنه يرى كما ظهر فى الجزء الأخير من « تأملاته الدينية » ، أن هذه العقول تتداخل مثل قطرات الزئبق التى تسقط فتشكل بركة ، ثم تعود إلى الأنفصال ، فتنحل « الوحدة » وتنساب لحين

---

(١) Ibid ., p. 16.
(٢) Ibid ., p. 18.
(٣) Ibid ., p. 23.
(٤) Ibid ., p. 25.

حـدوث تجمـــع جـديد ويـبدو أن تصـــور روح « الكنيسة البولسية » ، لم يظهـــر فى ذهـن « وليم جيمس » [١] . والحقيقة ولئن قد ظهر عند دراسة سيكلوچية الجماعة ، أنه يمكن لمجموعة من الأفراد ، أن تتمتع بوحدة عقلية وبنوع من الذاكرة ، إلا أن تلك الدراسات لا تعد كافية لفهم طبيعة المجتمع . فقد يكون لجماعة « السوق » مثلاً ذاكرة ، إلا أنها قصيرة وتظهر وتختفى ، فلئن قد تظهر كروح واحدة لعدة نفوس ، إلا أنها لاتستمر طويلاً . إن المجتمع الحق ، يكون نتاج عمليات زمنية وتاريخية وله ماضى ومستقبل ، ويشكل وعيه التاريخى ، . سواء كان حقيقياً أو خياليا ، جزءاً من ماهيته ، فالمجتمع يحتاج إلى التاريخ ، ووعى بذاكرة ما [٢] .

ب – وحدة الماضى والمستقبل

وبعد عرض إشكالية تعريفات المجتمع يخرج « رويس » بأن هناك مجموعة من المقدمات الضرورية لتعريف المجتمع ، فمن الواضح أن هناك حاجة ضرورية للتاريخ الطويل والممتد ، فدور « الزمان » فى تشكيل المجتمع يشابه دورة فى تشكيل الذات الفردية . فالإنسان يشعر بذاته من التجارب الماضية ، فالذات تحتاج للتاريخ ، بل هى تاريخ [٣] . فيتم الوعى بالذات ، بسبب الذاكرة التى تربط خطط الفرد بأفعاله السابقة ، فالذات ربط وتفسير لخبرات الماضى وآمال المستقبل . كذلك ومثلما يعرف الفرد ذاته من خلال خبراته الماضية ، يعرفـــة الآخرون ويقدرون شخصة من خلال أفـــعاله السابقة . فينظـر الآخـــرون « لأنا » الرجل ، بسبب إمتلاكه سجلاً من الأفعال . والواقع أن الفرد لا يشكّل أو يكون فكرة عن ذاته من المعطيات المباشرة ، وإنما يعرفها « من تأويل » خبراته الماضية وذكرياته . ومثلما يدرك « وحدة » ذاته ، يدرك « وحدة » المجتمع وكيف تكون قيمة خبرات الماضى لمجموعة الأفراد الذين يشكلون مجتمعاً [٤] . ويلاحظ أن مثلما تؤدى وحدة وتماسك خبرات الماضى ، إلى الشعور بوحدة « الأنا الحاضر » ، كذلك يمكن لمجموعة من الأفراد ، أن يكون لهم مجموعة من الخبرات الماضية التى يعدونها جزءاً من تاريخهم الذاتى ، بمعنى أن يعتبر

---

(١) Ibid ., p. 28.
(٢) Ibid ., p. 40.
(٣) Ibid ., p. 35.
(٤) Ibid ., p. 39

كل فرد منهم هذه الخبرات الماضية جزءاً من آنيته أو ذاته الخاصة . وغالباً ما يحدث ذلك بالنسبة للماضى البعيد . فقد ينظر فردان أو أكثر لواقعة معينة حدثت فى الماضى قبل ميلادهم ، على أنها جزء من حياتهما الشخصية ، كأن يكون لهما مثلاً مجموعة من « الأسلاف » المشتركة ، وقد يعتبر كل فرد منهم ، تجارب ومجد الروح الخالدة لأسلافة ، جزءاً من حياته الشخصية ، أو من تاريخه الذاتى ، ولا يحتاج أى منهم للقول « بالتداخل » أو « بالشعور المركب » (١) . لأن كلاً منهم يظل مستقلاً ومحافظاً على تفرده ، وقد يكون هناك نوع من التنافس والعداء بين مجموعة من الأفراد ، ولكن قد يكون لكل منهم سببه الخاص ، الذى يدفع الذات إلى الإمتداد فى الماضى ، وإعتبار ذكرى أسلافها جزءاً من ذاكرتها الشخصية . ولذا إذا كان هناك تشابة أو تطابق بين مجموعة من الأعمال التى حدثت فى الماضى ، ونظر إليها مجموعة من الأفراد بإعتبارها أجزاء من تاريخهم الخاص ، فإن هذا التشابة فى الماضى المشترك ، يكون ويشكل منهم مجتمعاً ، بالرغم من إنفصال وإختلاف كل منهم عن الآخر . ويرى « رويس » أنه إذا تم تعريف المجتمع بهذه الصورة ، تتخلص فكرة المجتمع من غموضها . إن مفهوم المجتمع ، يعتمد على تفسير الوقائع ، ولكن لا يكون التفسير مجرد وصف للأحداث ، أو تجاهل لإختلاف وتنوع الأفراد ، فلا يكفى القول بأن الحوادث قد حدثت فى الماضى ، وإنما لابد من إضافة أنها تنتمى لحياة هذه « الأنا » أو « تلك » و غالباً ما يتم الإعتماد على مثل هذا التفسير فى معرفة الإنسان لذاته الخاصة وفى الحياة اليومية (٢) .

كذلك يلاحظ أن مثلما يشترك فرد مع الآخرين ، فى إعتبار واقعة ماضية ما جزء من حياته الشخصية ، وإمتداد لذاته الخاصة ، فإنه قد يرغب فى « نفس الآمال » « ونفس المستقبل » الذى يرغبون فيه ، ويتوقعون حدوثه ، وينظر إليه بوصفه جزءاً من حياته المستقبلية الخاصة . فمثلاً قد يتطلع مواطنى دولة مافى زمن الحرب إلى النصر ، ويعتبر كل فرد منهم هذا الإنتصار نصراً شخصياً له . لذلك يرى « رويس » أنه إذا كانت هناك مجموعة من الأفراد ، وإعتبر كل منهم ، واقعة معينة تكون قد حدثت فى الماضى ، أو يتم

---

(١) اشارة الى وليم جيمس

(٢) Ibid ., p. 48.

توقيع حدوثها فى المستقبل على أنها جزء من خبراته الخاصة الماضية أو المستقبلية ، أى جزء من ماضية ومن مستقبله الشخصى ، فإن هؤلاء الأفراد يشكلون مجتمعاً حقيقياً [١] . ويمكن القول بأن المجتمع الذى يتكون من خلال قبول كل فرد من أفراده ، لواقعة معينة ، تكون قد حدثت فى الماضى ، ويعتبرها الآخرون جزءاً من حياتهم ، على أنها تعتبر أيضاً جزءاً من حياته الخاصة ، يسمى « مجتمع الذاكرة » ، أو مجتمع الذكريات » . وأما المجتمع الذى يتكون من خلال واقعة أن كل فرد من أفراده ، يقبل نفس الحادثة المستقبلية المتوقعة التى يقبلها الآخرون ، ويعدها فى نفس الوقت جزءاً من حياته المستقبلية وآماله ، يسمى « مجتمع الأمل » أو « مجتمع الأمال » . والواقع أن تعريف المجتمع بالإعتماد على وقائع الماضى والمستقبل ، التى تشكل علاقة مشتركة بين أفراده ، وبالإستناد على تفسير كل فرد من أفراده لماضى ومستقبل حياته الخاصة ، تعريف يحافظ على تنوع وتعدد وإختلاف أفراد المجتمع وتتحدد قيمة الأفكار والمثل العليا ، التى فى ضوئها يعرف الأفراد أنفسهم وماضيهم وسمتقبلهم . كما يبين مثل هذه التعريف ، لماذا كان هناك حاجة للتاريخ الطويل لمعرفة حياة المجتمعات العظيمة ، ولماذا يتشكل مجتمع جديد للآمال بسرعة أثناء الثورات ، كذلك يوضح التعريف ، العلاقة الوثيقة بين المجتمع والنسق الزمنى ، ويتضمن الإعتراف بوحدة الكل ، وبأهمية الذات الفردية فى نفس الوقت ، وينطبق التعريف على نماذج عديدة للمجتمعات السياسية والدينية [٢] .

كذلك يستلزم مثل هذا التعريف للمجتمع شرطين ضروريين لإستقامته ، الأول قدرة « الأنا » على التوسع الفكرى » . فإذا كان التعريف يعتمد على قدرة كل « ذات » ، على المشاركة فى الأحداث ، بإعتبار أن هذه الأحداث جزء من كيانها ، فلابد من توفر هذه القدرة « للأنا » ، ويرى « رويس » أن قدرة « الأنا » على التوسع والإمتداد الفكرى ، لا تكمن فى تصور الذات مجرد مجموعة من المعطيات الحسية المباشرة ، وإنما فى أنها حياة قد تتم تأويلها وتفسيرها ، أو قد قامت بتأويل وتفسير نفسها[٣] . فبالتأويل وحدة تحقق « الأنا » الوحدة لأفكارها ومشاعرها وتشعر بوجودها ، لأن إذا كانت الذاكرة الشخصية

---

(١) Ibid ., p. 50.
(٢) Ibid ., p. 53.
(٣) Ibid ., p. 60.

تحوى معلومات ، فإن التأويل يمثل الثقة فيها . كذلك تفترض هذه القدرة على الإمتداد حرية الذات وإستقلالها ، فـلا أحد يـفرض عليها ، إعتبار وقائع معينة جزء من كيانها ، فتعد « الأنا » مسئولة عن إختيار الخبرات الماضية والمستقبلية التى تشكل جزءاً من كيانها (١). ولا تعتبر « الأنا اللحظية » هى « الأنا المستحقة للحياة » ، وإنما « الأنا الممتد » ، الذى له معنى فى الزمان ، هو ما يستحق الإنتماء إلى مجتمع راق متميز (٢) . وأما الشرط الثانى فإن التعريف يتطلب محافظة كل فرد على هويته وتفرده ، فالمجتمع لفيف من النفوس المتميزة والقادرة على الإتصال الجماعى ، ولا تتحقق وحدته بسبب ذوبان نفوس أفراده فى ذات واحده لأن من الأفضل لحياة المجتمع ، أن يحافظ الفرد على هويته المستقلة ، بدلاً من فقدانها فى « سر غامض » ، لأنه بذلك يستطيع أن يساهم بدوره ونصيبه فى المجتمع (٣) .

جـ - وحدة الحاضر

فإذا كان المجتمع عبارة عن « كائن واحد » ، وتشكل الذكريات والآمال وحدته الشعورية ، التى لا تتجاهل تنوع وتعدد الأفراد ، فكيف تستطيع أن تعبر هذه الوحدة عن نفسها فى أفعال مشتركة وتنمى محبة جماعية ، وحباً مشتركاً بين الأفراد ، يفوق حب الفرد لذاته ، أو الحب المتبادل مع الآخر ؟ الواقع أن وحدة المجتمع مثل وحدة الذات ، دائماً ما تواجه عقبات تهدد كيانها ووحدتها . فقد تؤدى رتابه الأحداث ، وفوضى الصراعات ، وعدم تفاهم الأفراد وإنحرافهم ، إلى نسيان ماضيهم المشترك وفقدان الثقة فى الآمال ، وقد تكسو سحابة الأحداث الحاضرة ، الذكريات والآمال ، فلا يتذكر الأفراد وحدة الماضى والمستقبل ، ولئن قالت بعض الدراسات الأجتماعية ، بقيام وحدة المجتمع على « التعاون » ، إلا أن التعاون يظل جزءاً من حياة المجتمع ، وليس جزءاً من الوعى الإجتماعى ككل (٤). فحقيقة يعد « التعاون » ضرورياً لإستمرار الحياة الإجتماعية ، ولكن كيف يصبح جزءاً من الفكر أو الوعى الإجتماعى لمجتمع ما ؟ .

ويرى « رويس » أن حسب تعريف الجميع ، لابد من النظر « للتعاون » ، بوصفه

---

(١) Ibid ., p. 63.
(٢) Ibid ., p. 67.
(٣) Ibid ., p. 69.
(٤) Ibid ., p. 81.

أفعالاً يساهم فيها المجتمع ، ويعتبرها كل فرد جزءاً من حياته ، لذلك لا يشكل « التعاون » مجتمعاً ، إذ لا تشكل أى مجموعة من الأفراد مجتمعاً ، إلا إذا صاحبه إمتداد فكرى لكل ذات فردية ، تجعل من « العمل » الذى تم « التعاون » فيه ، جزءاً من حياتها الواسعة ، فقد ينشأ التعاون نتيجة ظروف سياسية وإجتماعية ، ولكن لا يشكل هذا النوع من التعاون مجتمعاً أو حياة فكرية واحدة . والحقيقة أن مفهوم « التعاون » ، يعد مفهوماً غامضاً ، إلى حد ما ، فقد يتعاون الأفراد مثل التروس فى الآله ، فلا يعرف أى منهم كيف يتعاون أو ما يجب أن يفعل لذلك إذا كان لإفعال التعاون أن تشكل مجتمعاً ، فلابد أن يدركها كل فرد ، بحيث يكون قادراً على توجيه فعله ، ومراقبة أفعال الآخرين ، ويكون مؤقتاً بأن بدون مثل هذه الأفعال التعاونية ، مستحيل أن ينجز المجتمع أعماله . فيشعر بأن فعل التعاون ينتمى إلى حياته الخاصة ، ولا يستطيع أى إنسان آخر القيام بفعله ، وكان لا يمكن تحقيقة ، إلا بالترابط والنظام ، وهذا العمل الذى تحقق أو سيتحقق يعتبره كل فرد من أفراد المجتمع ، جزءاً من حياته [١] . ويرى « رويس » أن إلى جانب غموض معنى التعاون لدى القائمين به ، يلاحظ أن المجتمعات إزادت تعقيداً وتوسعاً ، الأمر الذى يدفع الفرد إلى النظر إلى التعاون كعملية آلية ، ولا يعتبره ، نتيجة لعمل الخاص ، أو لإمتداد ذاته الفكرية . لذك هناك « حاجة » « للمحبة » ، ولن يتحقق الإمتداد للذات ، إلا إذا إعتمد على « عاطفة المحبة » ، فالحب يحقق ما لا يحققه الذكاء [٢] . فإذا إستطاع أى نظام إجتماعى ، أن يكسب حب أفراده ، بدرجة تجعلهم قادرين على فهم تفاصيل أفعالهم التعاونية ، وظلوا بعقولهم وقلوبهم ، يرغبون فى إستمرار مثل هذه الأعمال التعاونية ، ونظر كل فرد إلى الماضى ، وسعد بما حققه السابقون من أفعال ، جعلت حياة الحاضر ممكنة ، ووجد فى تلك الأفعال ، ما يؤكد حبه للحاضر ، فإن « الحب » فى تلك الحالة يشكل أساساً هاماً لوحدة الوعى الإجتماعى ، التى لم يستطع الذكاء تحقيقها . ولا يعتمد مثل هذا الحب ، أو الولاء ، على تجاهل إختلافات الأفراد ، بل يعتمد على رؤية « التعاون » الناجح لكل الأفراد ، بوصفه « الحدث » ، الذى يحبه كل فرد منهم ، وبوصفه إنجازاً خاصاً به

---

(١) Ibid ., p, 89.

(٢) Ibid ., p. 91.

أو له ولأجله [1] .

ويرى « رويس » أن إذا تحقق حب الأفراد للآمال والذكريات ، وللأعمال التى تمت فى الماضى ، واللآمال التى يأمل فى حدوثها فى المستقبل ، وإعتبرها كل فرد منهم جزءاً من حياته ، فإن هذا « الحب » ، يدفع الذات الفردية للتوحد مع حياة المجتمع ، ثم يمتد هذا التوحد الوجدانى مع أحداث الماضى وآمال المستقبل ، إلى توحد مع الأفعال الإجتماعية الحاضرة . ففى أيام الإحتفالات مثلاً ، تدفع الذكريات والآمال ، الفرد للإمتداد بذاته الفكرية التى تحوى وتشمل العمل اليومى لكل أفراد المجتمع ، ويرى الفرد حياة الآخرين وكأنها حياته [2] . إن الذكريات والآمال ، تؤثر على حياة الحاضر ، فتجعل الأخوة واضحة ، والتوافق الفكرى بين « الأنا اللحظى » للفرد « والجار » ممكنا ، بسبب ما سبق من توسيع فكرى « للأنا ذاتها » . وعلى ذلك يتعلم الفرد أولاً من « التوسع والأمتداد الفكرى » ، محبة حياة الماضى وآمال المستقبل ، ويجعلها جزءاً من حياته ، ويعرف ثانياً من رؤية محبة الآخرين لنفس الذكريات كاضية والآمال ، أنهم يحبون بعضهم البعض ، ويشكلون مجتمعاً محبوباً ، ويستنتج ثالثاً ، أنه بالرغم من إختلاف أفراد المجتمع ، وإستقلال الحياة الفكرية لكل منهم ، أنهم أعضاء فى هذا المجتمع ، ويستطيع كل منهم الإمتداد بذاته الفكرية الحاضرة ، لتحوى الحياة الحاضرة لباقى أفراد المجتمع ولأعمالهم . ويخلص « رويس » بإن إذا ما إرتوت الذكريات والآمال المشتركة فى مجتمع ما « بالحب » ، فإنها تتجه إلى توحيد الوعى الإجتماعى الحاضر ، وترتبط كل فرد بة .

ومن الواضح أن « رويس » يربط الحاضر بالماضى والمستقبل ، أى لا مجتمع بدون الوحدة الزمنية التى تجعل تجارب الماضى وآمال المستقبل جزءاً من الحاضر . كذلك لا يكفى التوسع الفكرى « للأنا» بالتأمل حتى تشمل الماضى والمستقبل ، فالتأمل وحدة ليس كافيا ، ولابد من الوجدان ، ومصاحبة « عاطفة المحبة » لهذه الذكريات والآمال . أى مصاحبة رحلة « الأنا » فى إمتدادها الزمنى سواء كان إلى الوراء أو إلى الأمام . فوحدة الحاضر

---

(١) Ibid ., p. 93.

(٢) Ibid ., p. 91.

الإجتماعية لا تتحقق إلا « بالمحبة » لوقائع الماضى ولآمال المستقبل . وبذلك تصبح « عاطفة المحبة » أساسية فى تحقيق الوحدة الفكرية لمجتمع ما ، وتصبح الضابط والمحدد لتوسع الذات وإمتدادها فلا يضم الفرد ذكريات أو آمال معينة إلى سيرته الخاصة ، إلا إذا كان يميل إليها . بذلك تصبح « وحدة الحاضر » قائمة على عناصر ثلاثة ، « مجتمع الذكريات » ، « ومجتمع الآمال » ، « وعاطفة المحبة » . ولما كان « رويس » لا يؤكد على واقعية أحداث الماضى ، فيرى أن الأحداث سواء كانت « واقعية » أو « خيالية » ، يكون لها دورها فى تكوين المجتمع ، كذلك لا يعلق أهمية على نوعية الآمال أو إمكانية التحقق ، ومعروف عن العواطف تقلبها ، فإن وحدة الحاضر ، تكون جذورها غير موثوق فيها وغامضة ، وفروعها خيالية أو محلقة فى السماء ، وترتوى بالأهواء والعواطف ، ولا تبرر بالعقل ، بل ويعجز العقل عن بنائها ، فتصبح وحدة الحاضر وحدة وهمية ، ويعود الغموض مرة أخرى ، يغلف مفهوم المجتمع الذى حاول « رويس » توضيحه وتعريفة .

ثالثاً : الكنيسة مجتمع مثالى

بعد أن عرض « رويس » لتعريف المجتمع وشروط تحقيق هذا التعريف والنتائج الفلسفية المرتبه عليه ، يحاول تطبيقة على الكنيسة « البولسية » ، وكيف أنها تمثل مجتمعاً ، وتحقق الشروط المنطقية لكونها مجتمعاً عالمياً .

أ – مجتمع الذاكرة

يرى « رويس » أن إذا كان التاريخ الطويل والممتد ضرورياً لقيام المجتمع ، فإن الكنيسة « البولسية » ، تعتبر أنسب نموذج ينطبق عليه التعريف . ويمكن إعتبارها مجتمعاً ، فلقد أعطى القديس « بولس » تعاليمة للكنيسة ، بأن تعتبر نفسها وحياتها ، مرحلة من العملية التاريخية لخلاص البشرية ، وإعتبر « بولس » وتلاميذه أن تلك العملية التاريخية ، قد بدأت منذ « أدم » وإستمرت حتى « موسى » ، ثم من « موسى إلى المسيح » ، فكانت حياة

المجتمع (مجتمع الكنيسة) ، قائمة ومرتبطة بفلسفة للتاريخ . وكون أن ذاكرة هذا المجتمع أسطورية فى بعض جوانبها ، فإنها مسألة تعد خارج الموضوع ، لأن المهم أن يكون له تاريخ سواء كان واقعياً أو غير واقعى . فلقد كانت حياة مجتمع الكنيسة قائمة ، وللمجتمع ذاكرته التاريخية . وإرتبطت الوحدة الفكرية ، بتراث من العمليات الإجتماعية ، ومجتمع الكنيسة مجتمع له تاريخ طويل وممتد (١) .

وإذا كان تعريف المجتمع لا يستقيم بدون مجموعة من الأحداث الماضية التى يعتبرها كل فرد من أفراده ، جزءاً من حياته الشخصية ، فإن الكنيسة « البولسية » المسيحية ، تعتبر مجتمعاً للذاكرة ، فلقد كانت ذكرى موت وبعث « السيد » ، حدثا يعترف ويعتقد به كل مؤمن ، بوصفه جزءاً من حياته الشخصية . ويعتقد « رويس » أن العقيدة المسيحية ، قد إعتمدت على هذه الذكرى الفكرية ، للمحافظة على مجتمعها ، وإذا ما تم تحليل الإعتقاد « بموت وبعث السيد » ، فى ضوء علم النفس الإجتماعى ، يتضح أنه إعتقاد من إبتكار « المجتمع المسيحى الأول » ، وإنتقل عبر الإجيال ، ويتم خلقة بإستمرار ، بالرغم من تعدد الكنائس وإختلاف الإجناس ، فلقد كانت الكنيسة مدركة ، لأهمية إعتماد مجتمعها على ذاكرته ، وأصرت على جعل الوقائع التاريخية القديمة ، وقائع حيه ، وجزءاً من ذاكرة كل مؤمن ، ويوصفها جزءاً من تاريخه وخلاصة الشخص . وذلك لإعتقادها ، بأن المجتمع إذا فقد « ذاكرته المشتركة » يفقد تماسكه ، ولما كانت الذاكرة الإنسانية ، تنتعش بإحياء الذكرى ، فلقد أصر « بولس » على إحياد ذكرى « عشاء السيد » فحينما وأينما يحيى كل فرد هذه الذكرى ، فإنه يسترجع ويتذكر خلاصة ، وتتحقق للمجتمع وحدته الروحية (٢) .

ب – مجتمع الأمل

ومثلما كانت « الكنيسة » مجتمعاً « للذاكرة » ، كانت مجتمعاً « للأمل » ، ولما كان إشتراك المؤمنيين فى أمل واحد ، ينعش ويوحد حياة المجتمع ، فإن « بولس » قد أكد فى رسالته للكورنثيين على البعث المشترك للكل ، وكيفية خلود كل فرد . وإعتمد « بولس » فى توضيح فكرة « البعث » على معتقد « بعث السيد » « والجسد الروحى » . والواقع أن هذا الجزء من الرسـالة ، يقدم نموذجـاً لحل مشكلة « الوحدة والكثرة » فى المجتمع ،

---

(١) Ibid ., p. 70.

(٢) Ibid ., p. 72.

ويبين كيف يتم الجمع بين عدد من الأفراد المختلفين ، ووحدة الجسد من خلال الأمل المشترك لنفس « الحدث » . فلقد كان أمام القديس « بولس » أن يتعامل مع مسألة خلود الفرد الإنسانى من جهة ، ومع مسألة العلاقة بين الإنسانية والكنيسة بالنسبة لموت ونهاية الأشياء من جهة أخرى . فلقد كانت مسألة « الموت » « والبعث » من المسائل التى يكتنفها الغموض . ولما كان الأمل المسيحى الأول ، يتمثل فى أن الكل يبعثون فى « يوم القيامة » فإن المؤمن كان يتساءل دائماً ، عن ما سيحدث له شخصياً وما سوف يحدث للبشرية ككل ، إذ كان التعارض بين السؤالين جديداً فى تلك الأيام ، وكان هناك نوع من التناقض بين الشعور بأهمية الذات الفردية ، ويبين التوحد الغامض لكل أفراد البشرية سواء كان مع « آدم » أو مع « الله » أو مع أى قوة روحية (١) .

ويرى « رويس » أن مهمة « بولس » ، كانت عبارة عن محاولة لوضع تصور يجمع بين المصير الفردى ، والوحدة الإنسانية ، ويوضح العلاقة بين الفرد والمجتمع من جهة ، « والكائن الإلهى » الذى يعتبره روح المجتمع من جهة آخرى . ولتحقيق هذا التصور ، إنتهج « بولس » إتجاهين ، الأول إتجاه يؤكد على أهمية إستقلال الذات الفردية ، والثانى يؤكد على وحدة الكنيسة وسيدها . فلابد أن يكون واضحاً ، فى ذهن كل مؤمن ، أنه « هو » وليس « الأخر » ، الذى يشاهد ويشارك فى هذا التغير أو الإنتقال العظيم الأخير ، وفى نفس الوقت ، سيكون هذا الموت نهاية للعالم الحاضر ، وأنه واحد لكل المؤمنين ، لأنهم يبعثون معاً جميعاً فى وقت واحد . وإستطاع « بولس » بهذين الإتجاهين ، أن يؤكد على أن الإنسانية جسد واحد . فأصبح الإنسان الأول « آدم » روحاً حية ، « وآدم » الأخير روحاً مبعوثاً ، الإنسان الأول من الأرض ، والإنسان الثانى « السيد » من السماء ، ويخلد كل من الفرد والمجتمع ، ويجد الفرد فى « البعث المنتظر » حياته ، ويحقق المجتمع إنتصاره على قوى الموت ، وبذلك حل « بولس » مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ولانجاة أو خلاص للفرد إلا من خلال المجتمع وروحة أى سيده (٢) .

---

(١) Ibid ., p. 75.

(٢) Ibid ., p. 78.

جـ - مجتمع الحاضر

يرى « رويس » أن نظرة القديس « بولس » للمحبة تتسق مع تعريف الوحدة الحاضرة للحياة الإجتماعية . فإذا كان الحب ضرورياً لتحقيق هذه الوحدة ، فما مصدر نوع هذا « الحب » الضرورى لتكوين المجتمع ؟ ويؤكد « رويس » أنه لا يمكن فهم وإدراك مكانه « الحب » ودورة فى تشكيل حياة مجتمع ما ، إذا فهم « الحب » على أنه نوع من الوحدة الصوفية بين النفوس ، أو نوع من « التداخل » بينهم . إن « الحب » يطلب من الفرد القيام بعمل إيجابى ، يوسع به ذاته الفكرية ، وأن يسعى بقلبه وفكره إلى حب الأفعال التعاونية ، التى يشارك الكل فيها ، فتصبح حياته وحياة الآخرين ، حياة فرقة موسيقية ، وليس حياة جماعة « تنسى » نفسها فى نوع من الغيبوبه المشتركة . ويبين « رويس » أن « بولس » ، لئن كان قد وضح إحتواء حب الفرد للمجتمع ، على عنصر صوفى أو روحى ، فذلك لأن « الحب » يتطلب المعرفة الكاملة لموضوعة (المجتمع) ويحتاج الإنسان إلى رؤية روحية شاملة للعلاقات المتنوعة فى المجتمع . كذلك لما كان « الحب » « عاطفة » فإنه فى حاجة لمعرفة موضوعة ، كواقعة موجوده ضمن الوقائع التجريبية ، ولذا لا يقنع بعزلة الأفراد ، وغموض النظام الإجتماعى ، وضيق النظرة الفكرية للحياة الحاضرة ، ويرغب فى حضور مباشر للوحدة ، والواقع أن « بولس » أعتبر مثل هذه الحاجة ، تمثل الجانب الصوفى أو الروحى من « المحبة » ، ولا تعبر عن المحبة كلها ، لأن « المحبة » فى نظره ، عبارة عن نوع من التوسع والإمتداد الفكرى « للأنا » . ولا تتحقق إلا بالتعبير العملى فى الأفعال الجديدة لكل حياة فردية . لذلك إذا لم يشعر الفرد بتميزه ، وإنفصاله عن الآخرين ، فإنه لن يستطع القيام بالأفعال التى تتطلبها « المحبة » ، خاصة الأعمال المخلصة . لذا قد يكون « للمحبة » جانب روحى ، إلا أن الأعمال ، يجب أن توجه بالفهم والذكاء . فروح الولاء تعتمد على الرغبة فى الوحدة ، وعلى إرادة تعبر عن نفسها فى الأعمال [1] .

ويبين « رويس » أن بالرغم من وضوح أهمية « المحبة » فى تكوين المجتمع ، إلا أن ذلك لا يوضح أصل الحب أو الولاء ، ولا يوضح الوسيلة التى يستطيع بها « الحب » أن يخلق المجتمعات . فقد تدفع العاطفة والذاكرة والأمل ، الإنسان لحب نفسه وحب الآخرين ،

---

(١) Ibid ., p. 98.

إلا أن المشكلة تظهر ، بسبب إتجاه التدريب الإجتماعى إلى توسيع التباين بين الفرد والآخرين ، وتميل التربية إلى تنمية شعور الفرد بالاعتماد على المجتمع الأمر الذى قد يؤدى إلى خوف الفرد من سيطرة الإرادة الجمعية ، وزيادة الكراهية للمجتمع . لذلك لا يمكن معرفة أصل الحب أو الولاء ، من تحليل ميول الفرد لحب الآخرين أو عاطفة المحبة . فقد يدرك الفرد الظروف التى تفرض عليه التوحيد بالنظام الإجتماعى ، وقد يدرك إرتباط تاريخ الجماعة ومستقبلها بتاريخه الخاص ، ولكن لا يعنى ذلك محبته للمجتمع وللآخرين . فقد يكون متشائماً ، ويرغب الهروب من حياته ، ويدرك رغبة الآخرين أيضاً فى الهروب ، أو قد يرى أن المجتمع أكثر قوة ، وأعلى من مستواه الفردى وبذلك لا يكون على إستعداد لحب ما كان أعلى منه . وربما يكون إحساس الفرد بهذا الشعور تجاه المجتمع ، ناتجاً من سوء فهم لطبيعة المجتمع ، إلا أن معرفة وفهم طبيعة المجتمع ، لا تعنى محبّه .

لذلك يرى « رويس » أن « الحب » للمجتمع ، لابد وأن يكون « حباً » من أعلى ، فيستطيع الفرد أن يحب مجتمعه حباً حقيقاً ، إذا كان « يحب » الكون ككل [1] . لذلك إذا ماثبت أن للكون طبيعة إجتماعية ، فإن الحب لهذا المجتمع ولله ، لن يكون حباً يفقد فيه الفرد ذاتيته ، وإذا ماثبت حسب تعريف المجتمع ، أن الإنسانية تشكل مجتمعاً واحداً واقعياً ، وأن للعالم ذاته نفس طبيعة المجتمع ، وإستطاع الفرد « حب » هذا المجتمع ، فإن الواحد والكثرة ، والجسد والأعضاء وموضوع الحب والأفراد ، يتحدون فى حياة واحدة ، يكونون فيها محافظين على تفردهم ، ويحيون فى نفس الوقت ، فى إتحاد مع المجتمع الذى يحبونه [2] . لذلك يرى « رويس » ، أن هناك ضرورة لوضع نظرية ميتافيزيقية لوجود العالم الواقعى أو تّوضح وجود الكون . وإذا ما أدت هذه النظرية إلى القول « بأن العالم مجتمع أو الكون كله مجتمع ، أو له طبيعة إجتماعية » ، فإن حب المجتمع يكون حباً من أعلى ، وتتحقق الوحدة بين الفرد والمجتمع والله ، ويصبح الكل فى واحد .

ومن الواضح بعد هذا العرض لفكرة المجتمع العالمى ، وتأويل « رويس » لفكرة الكنيسة ، وكيف ينطبق عليها التعريف الذى صاغة لهذا المجتمع العالمى ، أن « رويس »

---

(١) Ibid ., p. 101.

(٢) Ibid ., p. 103.

يدافع عن المذهب المسيحى للحياة الإنسانية . ويحاول أن يبين أن المسيحية بعقائدها ، ماتزال قادرة على أن تتلاءم مع العقل الحديث أو إنسان القرن العشرين ، وإن كان من الواضح أنه يقصد بهذا « الإنسان » ، المواطن الأمريكى الذى فقد الثقة فى التقاليد والمعتقدات الدينية المسيحية . كذلك من الواضح أن « رويس » يسير فى تيار أستاذه « وليم جيمس » ، ويعبر عن روح مجتمعه ومطالبه وحاجاته . فلقد كان المجتمع الأمريكى ، بعد الحرب الأهلية ، مجتمعاً يبحث عن دين يشبع مطالبه ويحقق إنسجام حياته ، ويقدم حلولاً لمشكلاته . ولئن كان « وليم جيمس » قد عبر عن روح مجتمعه وقدم للمجتمع الأمريكى ، المنهج البراجماتى ، ووضع تصوراً للدين طبقاً لهذا المنهج ، ووضح الأنساق المتعددة للخبرات الدينية الفردية ، فإن « رويس » قد عبر عن روح مجتمعة بمحاولة إحياء المسيحية البولسية أو الدفاع عن المسيحية بصورة عامة . فالمسيحية دين متطور ، يسير فى تيار التاريخ الإنسانى ، وجاء متسقاً معه وتطوراً منطقيا له ، وروح المسيحية تعبر عن روح الوحدة ، والمذهب المسيحى فى الحياة ، يعبر عن مطالب وحاجات إنسان العصر الحديث . ويظهر الدليل على موقف « رويس » الدفاعى عن الدين المسيحى ، فى تأكيده فى مقدمة كتابه « مشكلة المسيحية » ، أن إذا كان لابد من وجود فلسفة دينية ، أو دين يعتنقه الإنسان فى العصر الحاضر ، فإن « المسيحية » مازالت أفضل الأديان (١) . كذلك ومما يؤكد هذه الروح الإجتماعية عند « رويس » ، إختياره لفكرة المجتمع العالمى أو المثالى أو المحبوب ، وإعتبارها فكرة محورية فى العقيدة المسيحية ، ومحاولة تفسيرها ، بوضع نظرية ميتافيزيقية للمجتمع . وكأنه يقدم للمواطن الأمريكى نموذجاً لمجتمع مثالى ، ولكنه لا يتحقق إلا بإحياء روح الكنيسة « البولسية » .

يعد إزدواج المنهج أمراً واضحاً فى معالجة « رويس » لفكرة المجتمع العالمى فى المسيحية ، فمن الملاحظ الإنتقال من الفكر إلى العقيدة ، وذلك هو الأطار العام ، ثم الأنتقال من العقيدة للفكر فى بعض الحالات ، أى إنتقال من من الإيمان إلى العقل ، ومن العقل إلى الإيمان . فيبدأ أحياناً بالمسألة الإيمانية وينتهى إلى فكرة فلسفية أو يتم تأويلها تأويلاً

(١) J.Royce : The Problem of Christianity p.I " The Preface "

إنسانياً ، فتترجم مسائل الإيمان إلى أصول تجريبية إنسانية [١] ، وتتجلى العقيدة فى الحياة ، ويتحول الدين إلى فلسفة إنسانية ، فكان « رويس » يبدأ من نصـــوص « بولس » أو بعض فقرات الأنجـيل ويعتـــبرها مسلـمات فيبدأ منها ويحـاول البرهنة على صحتها ، أو يعتبرها نظريات تبحث عن تطبيقات أو تصورات تسعى لترجمتها ، أو يرد هذه القضايا الإيمانية إلى أصولها الإنسانية ، التى كانت منتجة لها ، فينعقد الوحى طبيعته الإلهية ، ويتحول الدين إلى فلسفة . بل ويظهر هذا النهج واضحاً فى التساؤل الذى صاغة « رويس » عن ماقـيمة العقائد لمن لا يقتنع بها ، أليس من حق المؤمن أن يتأكد من صدق قضايا الإيمان ، وأن ما يؤمن به حقائق واقعية يمكن التوصل إليها والبرهنة عليها بالعقل [٢] . أما النهج الثانى فيناقض الأول ، فيبدأ من الفلسفة إلى الدين [٣] . أو من الفكر للعقيدة ، أو من العقل للإيمان ، فيبدأ من نظريات فلسفية يتم إنتقائها من تاريخ الفلسفة ، ويدافع عنها ضد النظريات المتعارضة معها ، أو يؤلف بينها ، بحيث ينسج منها ثوباً فلسفياً ، يكسو به مسائل الإيمان ، أو يأتى فى النهاية مفسراً لها ، وغالباً ما يلجأ إلى الأمثال الدينية ومقتطفات من الدين ، لتأييد الفكرة الفلسفية ، أو ينتهى البحث بتطبيقات دينية ، ويتم الإستشهاد بأقـوال « بولس » فى وسط أو نهاية البحث الفلسفى ، أى يبدأ من العقل وينتهى إلى الإيمان . ويلاحظ أحياناً حدوث نوع من التزاوج بين المنهجين ، ويتداخلان بصورة يصعب الفصل بينهما ، وتؤدى إلى التساؤل أيعد « رويس » فيلسوف العقل أم المؤمن الفيلسوف ؟ والحقيقة أن منهج « رويس » فى شرح النظرية الميتافيزيقية للمجتمع يختلف عن المنهج الذى إتبعه فى شرح الأساس الإنسانى والدلالة الخلقية لفكرة المجتمع . ففى بحثه فكرة المجتمع المثالى كفكرة مسيحية ، كان المنهج يبدأ من الدين إلى العقل ، بمعنى البحث عن الأساس الفكرى للفكرة ، وأصلها الإنسانى حتى تصبح المسيحية منهجاً للحياة الإنسانية ، حتى قبل معرفة الإنسان لها ، بوصفها وحياً ، وأما فى الدراسة الميتافيزيقية لفكرة المجتمع ، فالمنهج معكوس ، بمعنى أنه ينقل من التصور والتعريف العقلى إلى تطبيقات وأمثلة دينية . فإذا كان مفهوم المجتمع يتطلب وجود الذات الفردية المستقلة

---

(١) J.Royce : The Problem of Christianity , P.I pp.45-60.

(٢) J.Royce :The Problem of Christinity p.II. pp.16-26.

(٣) Ibid ., p. 10.

والممتددة فكرياً ، ووجـود مجـتمع الذاكرة والأمل ، فالكنيسة خير تعبير عن نموذج المجتمع . ورسائل « بولس » تتفق مع تصور المجتمع بهذا المعنى ، وبذلك تهدف فلسفة الدين للدفاع عن الدين ، وجاء المفهوم العقلى للمجتمع متوافقاً مع الكنيسة ، كذلك قد يحدث الإنتقال من العقل إلى الدين بصورة أخرى ، فالفكر الدينى قادر على تقديم إيجابات وحلول للمسائل التى قد تعجز الفلسفة عن حلها . أو تلك التى تتركها بدون حل . فلقد عجز الفهم العام ، التعددية من الفلاسفة ، عن تقديم حل لمشكلة الوحدة والكثرة فى المجتمع . بينما إستطاع القديس « بولس » ، بذكائه الدينى حل تلك المسألة من خلال مجتمع الذاكرة ومجتمع الأمل المسيحى (١) . وبذلك يصبح الدين إمتداداً للفلسفة ومكملاً لها ، وليس بديلاً عنها ، فإن كانت علاقة الفرد بمجتمعه تشكل مشكلة فلسفية ، فلقد قدم « بولس » حلاً لها فى رسائله وحقق للفرد إستقلاله وللمجتمع وحدته . وقد يحدث الإنتقال فى صورة عكس الصورة السابقة ، أى إنتقال من الدين إلى العقل ، فالمؤمن يحق له أن يفهم أمور الدين ، وإذا لم يستطع رجال الدين توضيح تلك الأمور فإن الفلسفة قادرة على ذلك ، « فالنظرية الميتافيزيـقية للمجـتمع » . وكيف يكون الكون مجتمعاً ، تقدم حلا لكثير من المسائل الدينية الغامضة ، مثل كيفية إتصال الكائن الإلهى بالمجتمع المؤمن فى المسيحية . وهكذا يلاحظ أن العلاقة بين الدين والفلسفة أو الوحى والعقل ، لاتسير فى إتجاه واحد ، وإنما فى إتجاهين من أعلى لأسفل أو من أسفل لأعلى فقد تبدأ من العقل إلى الوحى وقد تبدأ من الدين إلى الفلسفة .

ومن الواضح إعتماد « رويس » ، فى تعريف « المجتمع على مبدأ المماثلة مع الذات الإنسـانية ، وكأن معرفة الذات ، تعد كافية لمعرفة وتفسير المجتمع . فإذا ما تم التسليم جدلا ، بأن وحدة المجتمع تشبه وحدة الذات ، ولاقيام لمجتمعات بدون ذكريات وآمال ، ولا قيام لوحدة « الأنا الحاضر » ، إلا « بالمحبة » لهذه الذكريات والآمال ، فأنه من الممكن القول بأن الكراهية تشكل وحدة الحاضر كما يشكلها الحب ، فكراهية الفرد لأحداث معينة فى حياته ، يمكن أن تشكل وحدة « الأنا الحاضر ، مثلما يشكلها الحب ، وهل يمكن إعتبار

---

(١) Ibid ., p. 80 - 90.

كراهية المسيحى لليهود بسبب « صلب المسيح » ، مسألة لاقيمة لها ، فى تشكيل وحدة الحاضر بمنطق « رويس » نفسه ؟ كذلك قد يشكل الخوف من المستقبل نوعاً من الوحدة فليست المسألة قاصرة على الآمال ، وحب الفرد لها ، فالخوف من مخاطر الذرة أو التلوث البيئ ، مثلاً يمكن أن يشكل وحدة أيضاً . وبالتالى يمكن القول بأن الجانب الآخر من العاطفة ، أو مايسمى بالعواطف السلبية ، يمكن أن يشكل وحدة الحاضر أيضاً ، وليست المسألة قاصرة على « المحبة » . وبالتالى يمكن فهم تأكيد « رويس » على القول « بالمحبة » بأحد أحتمالين إما أنه كان متدينا فى أعماقة ، فدفعه التبرير الدينى والدفاع عن المسيحية ، إلى التأكيد على « عاطفة الحب » ، ودورها فى تكون الذات والمجتمع ، فتأتى الحجة العقلية فلسفة مع أوقوال « بولس » وتعاليم السيد عن « المحبة » ، وإما أنه قد فهم « المحبة » بمعنى « الولاء » ، فيأتى تأويله الفلسفى للدين متفقاً مع نظريته فى الولاء ، وذلك قد يتضح عند عرض فلسفته فى الولاء .

يرى « رويس » أن هناك صلة حتمية بين الأخلاق والمجتمع ، فطبيعة الإنسان الإجتماعية تقترح المثل الأخلاقية ، ثم تعدل هذه المثل بدورها حياة وتاريخ المجتمع (١) . وتقوم الفكرة هنا على إفتراض أن الإنسان كائن إجتماعى بالطبع ، يخلق مثله ، ويسعى لتحقيقها فى المجتمع ، ولكن ما الدليل على صحة هذا الأعتقاد ؟ وإذا كان الإنسان إجتماعى بالطبع فما سبب وجود الصراع الإجتماعى ؟ وإذا كان الإنسان مخترعاً مثله العليا ، وقيمة الأخلاقية ، فإنه ليس فى حاجة لوحى خارجى يأتى له من أعلى ، ولا ضرورة لوجود أديان منزلة ، وبالتالى ينهار إفتـراض « رويس » أنه يسعى لتأويل المسيحـية ، إلا إذا فهم أن « المجتمع مصدر العقيدة » وبالتالى لا حاجة لوحى من أعلى فالمجتمع المسيحى الأول مصدر قيمة ومثله العليا . وبالتالى يكون الدين مجرد إعتراف بالحاجات والتجارب الإنسانية . حيث ينظر الإنسان إلى الأفكار والمذاهب الدينية بإعتبارها نتاج التجربة الإجتماعية للبشرية ، وبذلك يتفق « رويس » مع دور كايم » فى أن خبره المجتمع الإنسانى هى مصدر الدين (٢) . كذلك من الواضح أن « رويس » ، قد إعتبر فكرة « المجتمع العالمى »

---

(١) J.Royce : The Problem of Christianity , P.I p. 61.

(٢) Goeorge, p. Adms : The Interpretion Of Religion In Royce And durkeim, Philo sophical Review Vol xxv , pp.297 - 298.

الفكرة المحورية لكل أفكار المسيحية الرئيسية كفكرة الوضع اليائس للإنسان ، والخطيئة الأولى وفكرة التكفير وغيرها من الأفكار ، وبالتالى يصبح اللاهوت عنده ، عبارة عن دراسة للأساس الميتافيزيقى لفكرة المجتمع ، ولا يصبح مجرد دراسة للذات الإلهية وصفاتها ، كما يفعل اللاهوت التقليدى دائماً . وإنما جاءت فكرة « المجتمع العالمى » « محور اللاهوت ، وبذلك يصبح اللاهوت ، أقرب إلى الأسس النظرية لعلم الإجتماع ، وتوحد المجتمع بالله ، وأصبحت فلسفة إجتماعية . كذلك وما يؤكد هذا الإتجاه عن « رويس » ، أنه بدأ دراسة المسيحية ، بدراسة « للمشكلات » ، سواء كانت مشكلات نظرية تتعلق بالأفكار المسيحية وغموضها ، أو مشكلات عملية تتعلق بطبيعة المذهب المسيحى فى المجتمع ، أو مشكلات يواجهها المؤمن بصورة عامة ، والحقيقة أن مصطلح « مشكلة » فى حد ذاته أقرب إلى علم الإجتماع أو إلى الفلسفة ، وأبعد عن الأديان خاصة السماوية منها ، لأن من المفروض أن هذه الأديان تتصف بالأتساق وعدم التناقض وبالوضوح ، ولا تمثل مشكلات بقدر ما تحل مشكلات . كذلك يختار « رويس » عنوان « مشكلة المسيحية » عنواناً لعملة الرئيسى فى تأويل المسيحية ، الأمر الذى يفهم منه أن مشكلة المسيحية تعد أحدى مجموعة من المشكلات الأخرى التى قد تواجة المجتمع ، وتوحى بإستخدام العقل أو العلم لعرضها والبحث عن حلول لها . وبالتالى تصبح دراسة المسيحية جزءاً من علم الإجتماع .

والحقيقة أن تحليل « رويس » لنشأة فكرة المجتمع العالمى ، يمكن أن يواجه بعدة إشكالات . فقد إستند التحليل على تصور أن « المجتمع كائن حى » ، له نفس الصفات الإنسانية . ولم يناقش « رويس » صحة هذا التصور ، وإنما نظراً له نظرة براجماتية ، تقوم على إعتبار مجرد فرض ناجح ، له ثماره الأخلاقية والدينية (١) . وبذلك يصبح مجرد إثبات عدم صحة تصور « المجتمع كائن حى » إثبات لعدم صلاحية فكرة المجتمع العالمى ، بل وقد يهدمها من أساسها . كذلك بالنسبة لمسألة الولاء للمجتمع (٢) . فإن السؤال الذى يفرض نفسه ، كيف يتحقق ولاء الفرد لمجتمعه المحلى ، أو المجتمع الضيق الذى يحيا فيه ، ويتحقق فى نفس الوقت الولاء لمثال المجتمع العالمى ؟ ما الذى يؤدى بالولاء النابع من مصالح فردية

---

(١) J.Royce : The Problem of Christianity , P.I pp 65 - 67.

(٢) Ibid ., p. 70.

وإهتمامات عملية محددة ، إلى توسيع المجتمع الفكرى للمخلصين ، وإلى إتجاههم لتوحيد مجتمعهم . والولاء للمجتمع العالمى ؟ هل يعنى ذلك أن المخلصين يعتبرون مجتمعهم المحدود أو المحلى هو المجتمع الإنسانى الوحيدة ؟ وبالتالى يصبح مفهوم المجتمع العالمى ما هو إلا مفهوماً يعبر عن مجتمع « اليهود » أو الشعب المختار ؟ أم أن الولاء يمتد ويتسع ، ويتحول إلى « شفقه » وعطف عام يشمل كل أفراد البشرية ، وبالتالى يظهر التساؤل هل هناك حاجة إلى الولاء أم إلى « الشفقة » والعطف حتى يتكون لدى الإنسان ، تصور مجتمع عالمى مثالى تذوب فيه جميع الفوارق الإجتماعية ؟ والواقع أن تفسير المجتمع بأنه يتكون من خلال إعتبار مجموعة من الإفراد لبعض الوقائع الزمنية التى قد حدثت فى الماضى ، أو يتوقع حدوثها فى المستقبل ، جزء من الحياة الشخصية لكل فرد منهم (١) . ، يعد تفسيراً ضيقاً يصلح للمجتمعات الدينية أو السياسية المحدودة ، التى تؤمن بوقائع معنية على أنها جزء من تاريخ كل فرد ، وتتمسك بأمانى مستقبلية على أنها أهداف لكل فرد منهم . وربما جاء هذا التعريف مناسباً ومتسقاً مع فكرة المجتمع المثالى ، الذى يضم أفراده روح واحد ، ومع معتقداً « الروح القدس » ، الذى يجمع أفراد هذا المجتمع ويحيا فيهم ، وتصبح الكنيسة مجتمعاً مثالياً . ولكن يلاحظ من جهة أخرى أن التعريف قد جاء بعيداً عن الواقع ، فلئن كان التعريف يفسر وحدة المجتمع من خلال حوادث الزمان وعملياته ، إلا أنه لا يفسر حركة المجتمع الواقـعى الحاضر . ولا يوضح أهمية المصالح المشتركة التى قد تشكل رباطاً قوياً ، ودافعاً عملياً لوحدة أفراده ، والحقيقة أن المجتمع كيان مكانى ، قبل أن يكون زمانى ، ويؤثر فى أفكار أفراده ويسبغ نشاطاتهم وأفكارهم وآمالهم ، بظروفه الطبيعية وبيئتة الإجتماعية فلا يتكون من مجموعة من الأفراد المختلفين بعضهم البعض فى الوقـت الحاضر ، ولهم ذكريات و أمانى مشتركة . وإنما المجتمع أرض وأفراد ، شعب وبيئة ، وفكر وواقع ، بينهما علاقات متبادلة ، ويؤثر كل منهما فى الآخر ، فلا يمكن مثلاً فصل طبيعة المجتمع المصرى عن نهر النيل . فالواقع يؤثر فى فكر الأفراد وتصوراتهم فإذا كانت عمليات وأحداث الزمان ، تحل إشكالية وحدة الروح بين أفراد المجتمع ، فإن الإرتباط بالواقع

---

(١) Ibid ., p.p . 50 - 60 .

والتفاعل معه وردود الفعل والإستجابة والتحديات ، كلها أمور لها دورها فى تشكيل وحدة الحياة الروحية للمجتمع ، وبذلك جاء تعريف «المجتمع » فى الزمان وضاع فى المكان

كذلك بالرغم من قيمة مجتمع الذكريات ومجتمع الآمال ، ودورهما فى حل إشكالية وحدة الفكر والروح والمحافظة على تعدد الأفراد وإختلافاتهم ، وتبديد وجود العقل الجمعى ، إلا أنهما لا تقدمان حلاً لمشكلة الصراع بين الأفراد ، سواء كان فكرياً أو عملياً أو تفسيراً مجموعة من الأفراد بصورة تعارض باقى أفراد المجتمع ، فقد يحدث موقف داخل المجتمع الواحد ، يشطر المجتمع إلى نصفين أو أكثر ، مثلما يحدث فى الحروب الأهلية ، والتى غالباً ما تحدث فى مجتمعات تجمع أفرادها أحداث تاريخية مشتركة كذلك وإذا ما تم تفيسر المجتمع بأنه مجتمع الذاكرة . والأمل ، وتستطيع أي مجموعة من الأفراد تكوين مجتمع ، فإن ذلك قد يؤدى إلى العنصرية من خلال تأويل تلك المجتمعات المحدودة لتاريخها وآمالها . إضافة إلى ذلك من الواضح أن الحاضر قد ضاع فى الماضى والمستقبل ، فلما كانت وحدة الأفراد تتشكل من إعتبار كل فرد منهم ، مجموعة من وقائع معنية ، حدثت فى الماضي أو يتمنى حدوثها فى المستقبل ، جزءاً من حياته الشخصية ، فإن الحاضر يفقد وجوده وفاعليته . فتقوم وحدة الروح على ماضى غير موثوق فيه ، يختلط به الواقع بالخرافة . ، وعلى آمال مستقبلية تمتد فى الخيال ، وبذلك تستند وحدة أفراد المجتمع عند « رويس » على جذور مخفية فى الأرض ، وعلى أوراق تسبح فى الفضاء . وثمار لم تنضج بعد . والحقيقة أن النظرية يمكن أن تستقيم ، إذا ما تم تفسير الماضى والمستقبل تفسيراً فلسفياً ، يجعل الحاضر الحقيقة الوحيدة .